منهج طه حسين
فى الدراسات الأدبية

للدكتور شوقى ضيف

يعد طه حسين الرائد الفذ للدراسات الأدبية العربية فى القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضافرت فى إحلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكى تتضح لنا ينبغى العودة إلى تكوينه الأدبى فى نشأته الأولى حين كان طالبًا بالأزهر منذ السادسة عشرة من عمره وكان يختلف إلى دروس الشيخ[١] سيد المرصفى ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوصًا فى ديوان الحماسة لأبى تمام وكتابى الكامل للمبرد والأمالى لأبى على القالى ، وكان يملى عليهم شروحًا لما يقرأ ونظرات لغوية ونقدية ، من شأنها أن تكوِّن فى الطلاب ملكةَ الكتابة وتذوقَ الأدب والفقه باللغة وجودة اللفظ ورصانة الأسلوب.

وافتُتحت الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب إليها ، وكانت قد دعت إليها طائفة من المستشرقين فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا ليحاضروا بها فى قسم الآداب ، وكان بينهم جويدى الذى عنى بعرض الأدب الجغرافى والتاريخى ، ونالينو الذى عنى بعرض تاريخ علم الفلك عند العرب ثم بدراسة تاريخ الأدب العربى فى العصرين الجاهلى والأموى ، وسانت للانا الذى عنى بدراسة الفلسفة الإسلامية ، واليونانية ، وليتمان أستاذ اللغات السامية ، وعنى بدراسة تاريخ الفلسفة . وظل طه حسين يستمع إلى محاضرات أستاذه المرصفى فى الصباح ، كما ظل يذهب فى المساء لاستماع هؤلاء المستشرقين .

واستقر فى نفس طه حسين مبكرا أنه ينبغى فى دراسة الأدب العربى الانتفاعُ بطريقة شيخه المرصفى التى تعين على تكوين

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة السابعة من جلسات المؤتمر (جلسة علنية مسائية) المنعقدة مساء يوم الإثنين ٨ من شعبان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٠ م.

الملكة الأدبية عند الطلاب وتصقل أذواقهم بما تعرض من النقد اللغوى وبيان الدقائق والأسرار البلاغية ، والانتفاعُ مع ذلك بطرق المستشرقين فى دراسة تاريخ هذا الأدب فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر لابد إذن فى دراسة الأدب من الأخذِ بطريقة المرصفى التى تساعد على فهم النصوص الأدبية وتذوقها تذوقًا حسنًا والأخذِ بطرق المستشرقين لاستنباط التاريخ الأدبى لهذه النصوص ومَنْ أنتجها من الشعراء والكتاب

وما توافى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين رسالة يحصل بها على درجة العالمية من الجامعة المصرية الأهلية . اتحد موضوعها دراسة أبى العلاء المعرى مفيدًا فيها من طريقة شيخه المرصفى فى فهم الشعر وتذوقه ومن طرق المستشرقين فى دراسة تاريخ الأدب دراسة تعين على فهم المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية فى العصر كله . ويوضح تأثره العميق بطرق المستشرقين فى دراسته لحكيم المعرة ودرتها الفريدة قولُه فى فواتحها :

«ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف حياة أبى العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية فى عصره ، فلم يكن لحكم المعرة أن ينفرد بإظهار آثاره المادية والمعنوية وإنما الرجل وما له من آثار ، وأطوار نتيجة لازمة وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت فى تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان . من هذه العلل المادى والمعنوى وإذا صح هذا كله فأبو العلاء ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية » .

وما يلبث أن يعلن فى التمهيد أن مورخ الأدب الذى لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ولا يصطنع فى البحث طرائقه الطريفة . ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان لا يستطيع أن يوفِّى دراسة أبى العلاء حقها فى رأيه . والمهمّ إعلانُه جبريةَ التاريخ الأدبى وأنه ثمرة عالم ينبغى تبينُها فى دراسته ، وحار بعض الباحثين فى استشعار طه حسين لهذه الحرية وتساءل أهل اطلع على آراءتين

الناقد الفرنسى وما ذهب إليه من حبرية التاريخ الأدبى وجبرية علله المؤثرة فى سماته وخصائصه ولا موضع لهذا التساول ، فقد أعفانا هو نفسه من تعليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوربا والمسلمين ، أما فلاسفة أوربا فَمَنْ ذكره له منهم أساتذتُه المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم تين أو لم يكن ، وأما فلاسفة المسلمين فلعله يقصد ابن خلدون وما ذهب إليه من الجبرية التاريخية فى فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يرسم طه حسين منهجه فى دراسة تاريخ الأدب العربى ، فهو ليس سردًا لأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التى تتحكم فيه وفى منتجيه وما ينتجون من آثار أدبيه ، حتى ليقول : « إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يُجيدها الخطيب والرسالة ينمّقها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل حضوع المادة لعمل الكيمياء » . وقد يكون طه حسين مسرفًا فى تصور هذه الجبرية التى تشمل جميع الأدباء فى العصر دون أى تفريق بين أديب وأديب ودون أى مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ، غير أنه كان من الضرورى وهو يضع - لأول مرة - قواعد التاريخ للأدب العربى وأدبائه أن يقرع أسماع من يحاولون التصدى لدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحضارية فى العصر وفى أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحًا تامًا ، ومن الخير أن لا يعطوها صبغة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لابد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب فى العصر والعوامل التى تفاعل معها استبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرسالة فى تمهيد وخمس مقالات ، وتحدث فى التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفى المقالة الأولى عرض زمان أبى العلاء ومكانه وشعبه ،

وموضع عصره من العصور العباسية ملاحظاً أن ربط مؤرخي الأدب العربي بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد . لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهراً ولا يزال هناك من يردد هذا الرأي ، غير أنه من الصعب وضعُ بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهي في واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأ فجأة ولا هي تنشأ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجاً وتتخذ حادثة سياسية كبيرة رمزاً لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءاً للعصر العباسي ، وكانت مقدماته بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة — ويعرض طه حسين في المقالة الأولى أيضاً الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب في العصر والعلوم الأدبية واللغة .

وفي المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبي العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليمه ، ومراحل حياته وأحداثها مفصلة غاية التفصيل . ويتناول في المقالة الثالثة أدبه وشعره في سقط الزند واللزوميات والدرعيات ونثره وأطواره وخصائصه . وفي المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث في المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية والإلهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الرسالة تعد بدء التاريخ الدقيق لوضع الأسس القويمة لتاريخ الأدب العربي ، بحيث يدرس دراسة علمية سديدة كما يدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أخرى بكل مؤثراته — أو كما يقول بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جلّى شخصية أبي العلاء جلاءً تاماً وصور منزلته الأدبية والعلمية والفلسفية تصويراً بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه — أو اختلف بعض المعاصرين — إزاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فإن هذه الرسالة تؤرخ — كما أسلفت — البدء الحقيقي لدراسات الأدب العربي وتاريخه في القرن العشرين إذ وُضعت على منهج سديد يستصفي مما اتخذه الغربيون في دراسات

الأدب وتاريخه من مناهج محكمة قويمة مع الانتفاع فيها بمنهج شيخه المرصفى وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبى .

ولما أظهر فى رسالته من الاستعداد العلمى فى دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية إرساله فى بعثة إلى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوربى تعتمد على الأصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية . فأقبل على التزود من تلك الأصول بتعلم الإغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف إلى محاضرات دور كايم فى علم الاجتماع ، وأعجبته دراساته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما توضحها مقدمته المعروفة وكان يختلف إلى محاضرات دييل عن الحضارة البيزنطية ولينى برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسى ، وكان يروع من شأن الذوق وما يثيره فى الناقد الأدبى من انطباعاته وإحساسات وتأثرات بحيث يستهوى قارئه ويجذبه إلى ما يقوله ، وأعجبه منهجه التأثرى الذاتى فى دراسة الأدب ، واختلف إلى محاضرات كازانوفا فى تفسير القرآن الكريم وهو فى أثناء ذلك كله ظل يعنى بتاريخ اليونان والرومان

عناية أتاحت له الحصول على دبلوم الدراسة العليا فى القانون المدنى لروما .

وعاد إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فعين بالجامعة المصرية أستاذًا للتاريخ القديم اليونانى والرومانى . ويظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفًا وترجمة حول التراث اليونانى . ويصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة فى أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبِّر عن الحزب ومبادئه وأهدافه . ويصبح طه حسين كاتبها الأدبى . وينشر فيها يوم الأحد قصة ملخصة عن الأدب الفرنسى وكل يوم أربعاء ينشر فصولًا عن الشعر والشعراء فى أواخر العصر الأموى والعصر العباسى الأول . بدأها فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أبا نواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد إلى مروان بن أبى حفصة مارًّا بمطيع بن إياس وحماد عجرد وبشار ووالبة وغيرهم من المجان . وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهًا لتاريخ العرب فى حقبة باهرة من حقب تاريخهم زمن المنصور والمهدى والرشيد . وردَّ بأن العلم ينكر تقديس السلف ولا يعرف الهوى ولا العواطف واستشهد بعصور فى تاريخ

اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كانت من أرهى العصور ومن أكثرها لهوًا ومجونًا وأضاف إلى هذه الفصول فصولًا عن شعراء الغزل فى العصر الأموى ، وجميع هذه الفصول منشورة فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء ، وفى تضاعيفها نظرات وآراء فى الشعر العربى وتاريخه مما أفاده فى دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ونراه فى المقالة السابعة من الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها إلى محاولة فهم شخصيته ، وعصره وبيئته ، وما يحدثه شعره فى نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض فى إجمال منهج سانت بيف Sainte Beine فى نقد الشعراء وتحليل لشخصياتهم ومنهج تين Taine فى عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والأمم التى ينتمون إليها ومنهج جول ليمتر Jules Lemaitre فى عنايته بتأثير الشعراء فى النفوس ومايبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج فى دراسة الشعراء ، وانتفع أيضًا بمنهج أستاذه لانسون فى نقد الشعراء وأنه ينبغى أن يصور ما خلفوه من انطباعات فى نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصى لأشعارهم . وسيعود طه حسين إلى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين فى دراسة الأدب عمًا قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلًا .

وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية منذ ١٩٢٥ ويصبح طه حسين أستاذًا فيها للأدب العربى وتاريخه ، وأخذ فى محاضراته طوال هذا العام يعنى بدراسة العصر الجاهلى أقدم عصور الأدب العربى ، وما أن استدار العام حتى نشر كتابه : « فى الشعر الجاهلى » مستعينًا فيه بمناهج الغربيين فى دراسة الشعر اليونانى القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة فى الأوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأى العام بشكه الواسع فى الشعر الجاهلى وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصودر الكتاب . وفى السنة التالية أعاد نشر الكتاب فى صورة معدلة وبعنوان جديد هو : « فى الأدب الجاهلى » وفيه رسم منهجه فى دراسة تاريخه ، وكانت بعض أسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة فى رسالته عن أبى العلاء وفى المقالات التى نشرها فى السياسة والتى تحدثنا عنها آنفًا

فضم شوارد تلك الأسس وألف منها نسقًا واضح المعالم لمنهجه .

ويتحدث فى فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربى وتاريخه بمصر فى معاهده المختلفة ويقول إنها عقيمة أشد العقم محدبة أشد الإجداب إذ لا تنشىء ملكة أدبية . ولا قدرة على النقد والتحليل ولا تصوراً سليمًا لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الأدباء وما ينتحون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربى لابد له من أن يكون واسع الثقافة باللغة وعلومها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الأجنبية القديمة والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه مأثور الكلام شعرًا ونثرًا ، ويقسمه إلى أدب إنشائى وهو ما يستجه الأديب من آثار فنية شعرية ونثرية وأدب وصفى وهو الذى يدرس الأدب الإنشائى مفسرًا أو مؤرخًا ومحللًا وناقدًا ، ويقول . إن الأدب الوصفى هو ما سماه المحدثون باسم تاريخ الأدب

ويأخذ طه حسين فى بيان مقاييس التاريخ الأدبى ، ويبدؤها بالمقياس السياسى وما يترتب عليه من تقسيم الأدب العربى إلى عصور ، ويرفضه كما رفضه فى مقدمات رسالته عن أبى العلاء لما يحر إليه من الربط. بين قوة الأدب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية . وهو جدب منحط إذا انحطت الحياة السياسية ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت فى القرن الرابع الهجرى وارتقى الأدب وازدهر ، فالسياسة لا تصلح مطلقاً — كما يقول — أن تكون مقياسًا دقيقًا للحياة الأدبية .

ويعرض المقياس الثانى لدراسة تاريخ الأدب ويسميه المقياس العلمى ، وهو مقياس اشترك فى وضع مناهجه ثلاثة من مؤرخى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر أرادوا — بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية فى عصرهم وسيطرة مناهجها وقواعدها فى دراسة الفلسفة وظهور ما سمى فيها بالفلسفة الوضعية — أن يخضعوا الأدب وتاريخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة ، ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخى الأدب

الفرنسيين هم : سانت بيف Sainte Beune وتين Taine وبرونتيير Brunetiire أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين إلى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأسرهم وتربيتهم وتعلمهم ، وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية النفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراء ومن نجاح وإخفاق حتى إذا اتضحت فى شخصية الأديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الأدب أن يعرف ما يميز شخصيته ، وما يشترك فيه مع شخصيات أخرى بحيث يكوّن معها فصيلة أدبية فى الأمة على نحو ما يصنع علماء النبات فى تبين الفصائل النباتية المختلفة إذ يُسْتَخْلَص للفصيلة الأدبية قانونها العلمى الأدبى كما يَسْتَخْلِصُ هؤلاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة .

ومضى تين إلى نهج أبعد ، إذ لم يعتد فيه بشخصية الأديب الفردية ، إنما اعتد بقوانين حتمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة ـ دون أى استثناء ، كقوانين الطبيعة التى تخضع فيها جميع الجزئيات لكل قانون خضوعًا مطلقًا دون أى شذوذ ، ورد هذه القوانين إلى ثلاثة ، وهى الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان ـ أما الجنس فيُمثل فى الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمى إلى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكانى الذى ينشأ ويضطرب فيه جميع الأفراد فى الأمة بحيث يشتركون فى صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب إنما هو أثرٌ من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التى أحدثت الكاتب أو الشاعر وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نثر أو شعر .

وأما برونتيير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية فى دراسة الأدب إلى تطبيق ما ذهب إليه داروين فى علم الأحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع فى ذلك كتابه :

« تطور الأنواع الأدبية » محاولاً تقسيمها فى الشعر والنثر إلى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهى مثلُها يتولد بعضها من بعض ، وقد تتلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبِّق ذلك على المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائى ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا فى القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعاً أدبياً تلاشى فى نوع آخر ، إذ ذهب إلى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، إنما تطور عن الوعظ الدينى الذى ازدهر بفرنسا فى القرن السابع عشر ثم ضعف وعاد يحيى من جديد فى هذا الشعر الغنائى للقرن الماضى .

ويعقب طه حسين على هذا المقياس العلمى عند مؤرخى الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علماً خالصاً ، إذ لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة فى وضع قوانينها العلمية وهداه التفكير إلى مقياس ثالث لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبى . وهو فيه يمسح مجالاً واسعاً للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته إزاء الأثر الأدبى وصاحبه ، حتى يمتع عقولَ قرائه وقلوبَهم بتأثراته الذاتية ، وهو فى ذلك يستضىء بآراء أستاذه لانسون ، مؤرخ الأدب الفرنسى وما كان يذهب إليه من الحملة على أصحاب المنهج العلمى السالف لما يؤدى إليه من مسخ تاريخ الأدب فى رأيه ، إذ يخليه من شخصية المؤرخ الأدبى وتذوقه الشخصى ، ويجعله جافاً مجدباً لا يحبِّب الأدب إلى القراء

ولم يجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط . فقد رأى أن يفيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لا تطغى شخصية المؤرخ الأدبى على تاريخ الأدب وتتحكم فيه . وإلا أصبح فناً ولم يعد تاريخاً أدبياً وكما أنه ينبغى أن لا يصبح علماً خالصاً كذلك ينبغى أن لا يصبح عملاً فنياً خالصاً ، ومنهجُه الذى ارتضاه بذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتخذ فيه سبيلُ

وسط بين المناهج العلمية الصارمة السالمة وبين منهج لانسون التأثرى الذاتى ، وتأثر بلانسون أيضًا فيما ذكره من أن مؤرخ الأدب ينبغى أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضارى للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، مما جعله يذهب إلى أن دراسة الأدب ينبغى أن تمر بمرحلتين : مرحلة إعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب عاومَ النحو وفقه اللغة ، والصرف والبيان والتاريخ ومعرفةَ مناهج البحث الأدبى ، حتى يستكشف النص الأدبى ويحققه ويضبطه ، ومرحلة ثانية تلى مرحلة الإعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال فى الأثر الأدبى معتمدًا فى ذلك على الذوق الشخصى وبيان انطباعاته إزاءه مع ماينبغى له من الحرية الفكرية فى البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلى محتكمًا فى دراسته إلى مذهب الشك الذى أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى البحث ، وهو يتلخص فى أن الباحث ينبغى أن يدرس موضوعه خالى الذهن مما قيل فيه دون استشعار أى شىء من عواطفه الدينية والقومية وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكمًا ولا رأيًا مما قاله القدماء إلا بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلى دراسة علمية انتهت به إلى نظرية عامة هى أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًا ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ولا ينبغى الاعتماد عليها فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلى ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى وردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، ثم درس الشعراء الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراء اليمن وربيعة وشك فى حقيقة امرئ القيس ، وانتهى إلى رفض شعره وأشعار اليمنيين ورفض — أو كاد يرفض — أشعار شعراء ربيعة ، إذ جمهورها — فى رأيه منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال إلا القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه ، وأنكر النثر الجاهلى جملة ، وقال إننا لانستطيع أن نخلص

الأمثال الجاهلية من الأمثال الإسلامية ، فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطًا واسعًا . وكتبت عشرات المقالات فى الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض نظرية الكتاب فى أن الكثرة من الشِّعر الجاهلى منحولة موضوعة ، غير أن النظرية أدت دورًا مهمًّا فى دراسة هذا الشِّعر إذ أصبح شعراوه لايدرسون إلَّا بعد مراجعة دقيقة لروايات أشعارهم ونفى الزائف منها والاعتماد على الوثيق منها الذى لا تداخله الشبهة والارتياب .

ونمضى مع طه حسين إلى سنة ١٩٣٣ وفيها ينشر كتابًا عن حافظ وشوقى وهو فى مجموعة نقد للشاعرين الكبيرين . وينشر طائفة من المقالات فى بعض الصحف اليومية عن شعراء جاهليين ومخضرمين ، اختار فيها لكل منهم قصيدة مصورًا فيها انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء — وألقى مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن منزلة الأدب العربى بين الآداب القديمة الكبرى : اليونانية واللاتينية والفارسية ، ورأى أنه يتقدم الأدبين اللاتينى والفارسى وأخذ فى عرض النثر أثناء القرنين الثانى والثالث للهجرة وأعلامه النابهين : سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الإنشاء فى دواوينه وخليفته فى الدواوين الأموية . عبد الحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان يتأثر فى صياغة كتابته باليونانية الكثرة استخدامه للحال ، وهى لازمة تلاحظ عند أستاذه سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع وشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون العربية ويعييهم أحيانًا الأداء السديد غير آبه بثناء القدماء عليه وعدهم له أحد الأدباء الأفذاذ الذين يتقدمون أدباء العصر العباسى وكتابه ، وذوه بالجاحظ وبرسالته البديعة « التربيع والتدوين ». وأضاف إلى هذه المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراء فى القرن الثالث الهجرى . أبى تمام ، والبحترى وابن الرومى وابن المعتز . ونشر هذه المحاضرات جميعًا فى كتابه : « من حديث الشِّعر والنثر » وهو يجلو جوانب من الأدب العربى نثرًا وشعرًا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وفى سنة ١٩٣٧ أصدر كتابه مع المتنبى وهو فيه يدرسه دراسة نفسية تاريخية فنية . تتبعه فيها

منذ مولده ومنشئه فى أسرة متواضعة . ورأى أن شعوره بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين كان العنصر الأول المؤثر فى شخصيته وبغضه للناس وما أخذ حياته من الشذوذ ، ويرافقه فى تعلمه وارتحاله إلى البادية وبدء نظمه للشعر وتعرفه على مبادئ القرامطة ومفارقته للكوفة فى السابعة عشرة من عمره وإلمامه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله إلى الشام وثورته فيها وسجنه ومديحه للأمراء هناك وإقامته فترة فى بلاط سيف الدولة ، وتحوله إلى كافور بمصر وفراره منها إلى العراق وارتحاله إلى إيران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لدنهما ويفتك به القرامطة فى طريقه إلى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبي فى كل ذلك محللاً نفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مراراً ويقول إنه كان متهالكاً على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصب عنايته فى الكتاب على شخصية المتنبي لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه .

ويشير الجزء الثالث من حديث الأربعاء وهو يضم مقالات متنوعة بعضها نشره فى صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضه نشره هنا فى السنوات الأخيرة ، ويدخل فى القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم ، والحديث والرافعى وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل فى القسم الثانى ما كتبه من مقالات نقد فيها الإبداع الشعرى عند على محمود طه وإبراهيم ناجى ومحمود أبى الوفا وإيليا أبى ماضى وفوزى المعلوف ويعود إلى أبى العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسفته فى كتابه : « مع أبى العلاء فى سجنه » ثم يعود إليه ثانية فى كتابه « صوت أبى العلاء » ناثراً طرائف من شعره . وطه حسين — بكل ما قدمت — يعد الرائد الموجه الفذ لدراسات الأدب العربى وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين فى القديم والحديث .

نعوفى ضيف
الأمين العام للمجمع